مَا يَكمُن في الأعماق

اســـــم الكتــــــاب: مـــَا يَكمـــُن في الأعـــماق

التـــأليــــــــــــف: إيهـــــــاب رضـــــــا

نـــــوع العمـــــــل: مجموعــــــة قصصـــــية

تـدقيق وإخــراج فنــي: سالم عبد المعـز (عمـرو سـواح)

رقـــــم الإيـــــداع: 2021 / 9161

الترقـــيم الـــــدولي: 7-246-835-977-978

النــــــــــــــاشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

مَا يَكمُن في الأعماق

الكاتب

إيهاب رضا

إهداء

إلى روحِ أستاذي الفاضِل «مدحت جاد الله» الشخص الذي جَعلني مُمتنًّا للغة العربية، ومُحبًّا للكتابة..

العظماء يُغطى أجسادهم التراب وتبقى أسماؤهم هنا تتداولها الكتب..

قال بنبرةٍ ساخرةٍ وهو يَتنهد:

- ولماذا اخترت الكتابة إذًا؟!

- لأنني قررت ألا أموت.

قُلتها بصوتٍ هادئ، فرد بالابتسامة السخيفة نفسها التي تَنضح بالجهل القابع في عقله:

- وهل تضمن لك الكتابة أنك لن تموت؟!

- أعتقد، إن كانت صادقة.

- إذًا ستُخلد؟

- أتمنى أن يحدث ذلك.

- ولكن الموت آتٍ لا محالة.

- موت الأجساد فقط يا رجل.

*****

(١)

كُنا نشتري مرضًا

كانت السابعة صباحًا، ركل باب غرفتي وصرخ:

- المُخدر لا يزال في رأسي يا بسام، لا أستطيع التخلص منه.

نظرتُ إليه باندهاش، ثم تعالت ضحكاتي وأنا أقول:

- هكذا لن نتكلف اليوم إلا جرعةً واحدةً لي، ما المزعج إذًا يا نادر؟!

أخذ نادر يخطو تجاهي بهدوءٍ وتبدو على وجهه علامات القلق ثم همس بصوتٍ خافت:

- إنه ليس أثر المخدر، ليس هكذا، أنا لم أتعاطَ مُنذ خمسة أيام وما زال الشعور مستمرًا، أشعر وكأنني أحلم يا صديقي! أنا خارج هذا العالم أراه من الخارج، لا أشعر أنني أتحدث إليك الآن، أتفهم؟!

- أنا لا أعي جيدًا ما تقول.

قُلتها ثم تابعت: وأنت أيضًا كذلك، لا تعي ما تقول؛ تُخبرني تارةً

بأن المخدر ما زال في عقلك، وتارةً تخبرني بأنه ليس أثر المخدر، ولكنني على الأقل قد لمست ما تشعر به الآن، تشعر بأنك تُشاهد العالم وأنك لست جزءًا منه، أليس هذا ما نتعاطى من أجله المخدرات؟! إذًا لمَ أنت منزعج الآن؟!

هز نادر رأسه ثم نهض، وذهب إلى غرفتهِ، وكأن العالم لن يتفهَّم ما يقول.

بدأتُ أشك بأن ما يشعر به نادر ليس أثر المخُدر حقًّا، فقد تعاطينا الحَشيش، الذي لا يستمر تخديره للعقل أكثر من ثلاثة أيام، وبدأ عقلي يُصنف ما يشعر به نادر تبعًا لما درسته من أمراض نفسية، ولم أجد من اكتئاب نادر المُستمر وما يشعر به الآن إلا إنه قد أُصيب بمَرض "DDD" أو ما يُدعى باختلال الآنية وتبدد الواقع إنه من المُمكن أن يشعر الإنسان الطبيعي بتلك الأعراض للحظةٍ ما، يشعر أن ما يحدث حولة ليس واقعيًّا وأنه يَحلم، ولا يعني هذا إنه مُصاب بتبدد الواقع، إذ يَحدث هذا لنصف سُكان العالم تقريبًا ولو لمرة واحدة في حياة، لذا انتظرت لأرى هل ما أخبرني به نادر كان شعورًا طبيعيًّا، أم إنه مُصاب بتبدد الواقع؟

الخامس والعشرون من شهر سبتمبر، قد مر شهران...

يتكرر شعور نادر كل يوم، نادر مُصاب بتبدد الواقع.

لم يكن للحشيش الذي نتعاطاه دورٌ في إصابة نادر بهذا المرض.

طوال الشهرين أراه يضرب رأسه اللعين كل يومٍ في الحائط، يسألني:

- ألم يكتَشفوا عِلاجًا لهذا المرض بَعد؟

فأهز رأسي "لا"، ويهتز معها قلبي وعقلي.

كانت تهوى الحيرة بعقلي، كما تَهوى الرياح برِمال الصَحراء، فلا تعلم من أين أتت ولا أين تذهب!

أتساءل إن كنا نَدفع من أجل أن نعيش في منطقة الحلم هذه للحظات أو بِضع دقائق وكُنا نود أن نتعاطى كل دقيقة لنبقى في تلك المنطقة لأطول وقتٍ مُمكن، فلمَ هو مُنفعل الآن بشدة ويود الخروج منها؟!

بقيَ هذا السؤال يُراود عقلي كل يوم، حتى أقلعت عن المخدرات.

أقلعت عن اقتناع.. حين أيقنت حقًّا إنه مَرض، أننا كُنا ندفع من أجل شراء المرض، لا العلاج..

آمنتُ بتلك الآية التي تقول

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ﴾ [التين: ٤]

رغم ضعف إيماني.

إن الكيمياء التي خُلق بها العقل، هي أفضل حالة من المُمكن أن يكون العقل عليها.

****

بعض الصِّفات مُؤذيةٌ جدًّا، لكن وجودها يُعني أنك نقي مِن الداخل بشدة، كتعلقك السريع بالأشخاص.

عَاتِب فقط من يَتفَهمُون عتابك، أما الباقون فاتخذ مواقفَ مِنهم مباشرةً، كَكلبِك الذي ينبَح كثيرًا فتنقله على الفور لمكانٍ آخر دون إخباره بشيء.

(٢)

لا يموت.. لن يموت!!

على مَرمى بصري أرى زجاجة مياه تَبدو سوداء مِن كثرة الأتربة بداخلها تحت يَدي أكثر من مئتي نوعٍ مِن الخُمور.. أبدو كزجاجٍ تَقضم مِن كثرة الطرق، أفزعني سؤال صديقي:

- ماذا بك؟!

قُلت:

- لا شيء، فقط ينتابني العَطش بِشدة.

نظر إلى كؤوس الخَمر باهظة الثمن تحت يدي، أغمض عينيه واندلع في الضحك، أدركت للتو إنه يستهزئ.. موجة من الموسيقى العالية.. عاهرات عاريات هُنا وهُناك.. الجميع يَبدو في حالة سُكْرٍ تام.. الجميع يسد شهوة العطش بتلك الخمور.. ما زلتُ أُجازف حتى أصل إلى زجاجة المياه العطنة هذه، ما زالت تَبدو أفضل بالنسبة لي، ولكن لمَ تَقع مِني نفس المسافة كُلما اقتربت؟!.. وكأنها تَبتعد أيضًا، أنهكني السير، ارتطمت بأحدهم فابتسم ابتسامة

مزيفة، هز رأسه:

- ماذا تُريد؟

أشرتُ بإصبعي:

- تلك الزجاجة.

حَدَق بشدة إلى مكان الزجاجة، ثم التفت لي وقال:

- أي زجاجة؟!

- زجاجة المياه العَطِنة هُناك.

تنَهد باستهزاء:

- لم يَكُن عليك شُرب عَشر كؤوس مِن الخمر، حتى يُصفق لك البار بأكمله.. لا توجد أية زجاجة هُناك يا رجل!

هُنا فقط يبدو العالم على حقيقته.. فوج من الضجيج الصاخب غير المُجدي، الناتج مِن الفَوضى العارمة، الجميع يُشارك في تِلك الفوضى دون أن يَقتنع أو يعي بذلك، يتبقى فقط الجزء الذي يتشبث بالروح، الجزء الذي يُلهمك الصواب وأنت في زُلفة الخطأ، يتبقى فقط ضميرك الذي لن يكُف عن هذا إلا بخروج تلك الروح.

*****

ستُخبرك الحياة قريبًا بأنها عاهرة لا تُحبك هادئًا ولطيفًا، تعشق مُشاكستك.

هُناك أشخاص يستطيعون التعايُش مع أنفسِهم، مع وحدَتِهم، وهناك أشخاص لا يستطيعون مَهما حاولوا أن يعيشوا في وحدتِهم.. الفئة الأولى ثمة فئة مُحطمة أما الفئة الثانية فهي الأكثر تحطمًا.

(٣)

انتظارك المُميت...

رأى الحياة بملذاتها من الخارج، أعجبته بشدةٍ فقرر أن يخوض فيها ككلبٍ ظمئ، بَطش في بئر مظلمة ولم يستطِع الخُروج منها فراح يُجازف ويُجازف حتى أنهكته المحاولات فقرر أن يستكشف قاع البئر بدلًا من الملل، إما أن يختنق ويموت، وإما أن يرى ما هو جديد.

رأى فتاةً جميلة، أحبها، ظنها طوق النجاة، فسَبِحت معه لفترة ثُم اختفت، ازدادت حالته سوءًا، ولكنة ما زال يُجازف، قال لنفسه بصوتٍ هالك.

"لم أعثر على من ينتزعني من هنا بعد"..

راح يستكشف البئر مرةً أخرى، رأى مجموعةً من الأصدقاء، تعرف عليهم، ظنهم طوق النجاة، اقترب منهم فترةً ثم توارى تآلفهم.

تُغرينا الحياة، نغرق في لهوها، وننغمر في الخطأ، نمكُث في ذاك

الضياع لفترةٍ ثم نود أن نعود كما كُنا، فننتظر شيئًا ما ينتشلنا من هنا..

ننتظر شخصًا ما ليُغيرنا، فيمر على شريط حياتنا أسماء وشخصيات، ولا تتغير حياتنا، نَبقى في هامش الانتظار حتى نُدرك أن التغير هو شيءٌ نابعٌ منك، وإن تبقى في انتظار شخصٍ ما لتتغير من أجله، فإنه من الأَولى أن تتغير من أجل نفسك.

*****

"الصدق"

صفة إذا فقدها الشخص مع ذاتِه، فقد ذاتِه.

في المكان الذي يسوده الجهل يُمكنك أن تصير قائدًا بقليل من العلم مع كثير من ادعاء الفضيلة.

(٤)

تنافُس الأنفُس...

كان دائم التنافُس، يُحفز نفسه كُلما هَبِط، كانت تِلك الأسئلة تَختَرق عقلة لتسكُنه..

هل ستُصبح أقل منهم؟

هل سيهزمونك؟

كانت كبرياؤه هي الطاقة التي تدفعه لتجَعله دائمًا في المنافسة، وأحيانًا في المُقدمة، ولكن ماذا حدث؟! لمَ اختار ذلك الجُحر اللعين ليسكنه؟!

لم يسمع أحدٌ صوتَه مُنذ سنوات، أصبح راقدًا هُنا لا يتحرك، لا يُنافس، نائمًا كأصحاب الكهف، وأحلامه باسطةٌ ذراعيها ككلبهم..

استفاق للحظة، سأل نفسه بصوتٍ ما زال يشوبه الكِبرياء:

- لمَ أنا هنا؟!

ألم أكن أفضل منهم؟!

تذكر أنه كان دائمًا يتنافس معهم، لا مع نفسه، فحينما غابوا

وسلك كلٌّ منهم طريقه، اعتقد أن المنافسة قد انتهت.

المنافسة الحقيقية هي منافستك مع ذاتك، أن تستيقظ كل يوم ولديك الدافع أن تبقى أفضل مما كنت عليه أمس، لا تنشغل بمن حولك فإن جعلت من حولك هم وجه المنافسة، فاعلم أنك ستتخطاهم في يومٍ ما لا محالة طالما تعمل بجهد، ولكن حينها سيتوهم عقلك أن المُنافسة قد انتهت، فستهدأ طاقتك تدريجيًّا، حتى تُفنى، وتنام كأصحاب الكهف، لتستيقظ فترى أن الخطأ في الفكر يُكلف المرء سنوات.

****

الذكاء والحظ السيئ إذا اجتمعا في شخصٍ، فاعلم أن عقله نشط دومًا وقلبه مُحطم باستمرار.

الجَميع سيئ، ولكن يَكمُن الفرق في أن أحدهم يعترف بسوئه والآخر ينكره، هُنا يتضح سواد القلوب من نقائها.

(٥)

بعضهم فُرص لا تُعوض...

أخبروني من قبل أن الحياة فرص

سقطت في الوحل

ملأ غُبار الحياة وجهي

أتتني الفُرص، انتهزت بعضُها، وتركت بعضها وتركني البعض الآخر..

تعلمتُ أن الفرص أنواع، ثمة نوع واحد عليك التشبث به

"فرص التعرف على الذات"

تلك المواقف التي تتساءل فيها:

- لمَ فعلت هذا؟! هذا ليس أنا!!

لا تكُف

عافر فإنك الآن في قاع الوحل

ما وراء ذاك الفعل هو أنت حقًّا

أنت الذي لا تراه

حين تجد إجابة ستعرف مَن أنت حقًّا

إنه المفتاح الوحيد الذي يُمكنك من الخروج من هذا الوحل.

*****

يُشبه تفكيرك، تُشبه روحه روحك.. ابحث عن هؤلاء الأشخاص دومًا، اجعل منهم صديقًا، حبيبًا وعدوًّا إن أمكن ذلك.

لا أعلم كيف مَرت الأيام وتركت بعض الأحداث في ذاكرتنا لعنات!! ذكراهم لعنات.. لمَ لا تُمحى؟! في الحقيقة الذكريات لعنات أبدية لن تُمحى، فمهما حاولنا أن نقتنع أننا نَسينا، مهما تخالطنا بالأحداث وتخالطت بنا، هُناك لحظة تُعيد كل شيءٍ إلى واقعه وحقيقته تُعاد أيامهم في خيالك وكأن أحداثها سُجلت بالأمس.. نحنُ مُقيدون هنا في تلك اللعنات للأبد، هذا قدرنا.

(٦)

عام مُخيف

تعبت من الرقص والاحتفال فذهبتُ للاستراحة على مقعدٍ في جانب الميدان، والابتسامة ما زالت على وجهي، جلست حتى دون النظر حولي، مد لي يده بالمصافحة وهو يقول:

- مرحبًا، هل أنت أحمق؟

كدت أن أركله قبل أن أنظر إليه، كان كهلًا يتجاوز السبعين من عمرِه، تملأ التجاعيد وجهه وكأنها رقعة أرض أصابها الجفاف فتشققت، يرتدي قبعةً سوداء ينساب شعره الأبيض الطويل من تحتِها، ويده ترتجف، لا أدري من شدة البرد أم من شدة الضعف..

انتبهت لتلك التفاصيل للحظات، فكرر سؤاله مجددًا:

- هل أنت أحمق؟

ظننته مجنونًا فقُلت بصوتٍ غليظ:

- ماذا تريد أيها العجوز؟

شد يدي وصافحني وقال بنبرةٍ ساخرة:

- مرحبًا أيها الأحمق، لا تقلق أنا لا أهينك ولكنك بالفعل أحمق، تلك الابتسامة التي احتلت وجهك وأنت خارج من الاحتفالات توحي بذلك، لقد كُنت مثلك، كنت أُقبِل إلى احتفالات رأس السنة في كل عام أرقص، أغني وأقفز وأنا لم أحقق شيئًا في ذاك العام الذي انتهى، لا أدري لمَاذا أرقص وأغنى؟!.. كنت أحمق.

صَمتَ قليلًا ثم أخذ نفسًا عميقًا وأخرج زفيرًا وهو يقول بصوتٍ هادئ:

- وما زلت أحمق، أتيت اليوم أيضًا لأرقص وأغني، لم أستعِب إلا الآن أنني قضيت خمسًا وسبعين عامًا دون تحقيق نجاح.

نظرتُ إلى الشاب الذي كنت أحدثه فوجدته توارى.. توارى بداخلي كما توارى شبابه بداخلي، إنه أنا.. كنت أحدث نفسي، كنت أحدث فترة من حياتي.

إن من أكبر مخاوفي، أن يمر عمري دون تحقيق أي نجاح، أي حلم.

*****

إذا كان الأمر يتطلب منك التضحية المُستمرة فعليك بتعديله أو تبديله.

بالطبع جُرعة أكثر من الكافيين تحتاج إلى مزيد من الدخان، مزيد من القهوة.. الكافيين مُضرٌّ جدًّا لكن لا أحد يهتم، لا أحد يهتم هو ما يَجعل ضرر الكافيين جميل للغاية.

(٧)

ما يقتُل الأنفس، يقتُل الأجساد أحيانًا

نظر إلى نفسه في المرآة، ما زالت ملامحه تحمل شيئًا من القوة والشدة، هز كتفيه كالعادة، ارتدى سُترته الجلدية وساعته الفضية الأنيقة، ابتسم لنفسه في المرآة ونزل إلى الشارع، كان يتأمل الوجوه، يُدقق في تفاصيلها بعناية، مَسكتْ يده، فنظر خلفه، وجدها فتاة صغيرة تَبلغ من العمر حوالي عشر سنوات يُغطي الغُبار وجهها، وكأنها أولجته في قِدرةٍ مملوءةٍ بالطين، قالت بصوتٍ خافت:

- أعطني شيئًا لأشتري طعامًا.

انحنى لها، أخرج مائة جنيه من جيبه وأعطاها إياهم، نظرت فيهم للحظات ثم فرت من أمامه وكأنها اختلستهم، ابتسم وأكمل سيره يستمع إلى الضوضاء، أصوات السيارات وأصوات المارة المُتداخلة وكأنما يستمع لأغاني أم كلثوم، عَبرَ الطريق ووقف أعلى الكوبري، نظر إلى النهر، ونظر إلى العالم من حولِه، ابتسم، ثم ألقى بنفسه فيه..

مَرَّ شريط حياته أمام عينيه والهواء يرتطم بوجهه فتذكر كيف

أحبها وكيف خذلتهُ! كيف كانت الوعود، وكيف انتهى كل شيء! كيف كان يثق بها، وكيف انعدمت ثقته في كل شيء!

"الخِذلان"

الخِذلان من أبشع الأشياء التي تؤذي الروح من الداخل، لأنها تأتي من شخص أو شيء قد أحبته تلك الروح، قد وثقت به، فلا تستطيع كُرهه ولا تستطيع حُبه ولا تستطيع أن تتعامل معه كالآخرين، ولكن هل يَعني هذا أن نوقف حياتنا أو ننهيها؟!

هُناك أشخاص تُخذلهم الحياة كل يوم، ليس لديهم خيار سوى أن يعيشوا، وُلدوا فوجدوا أنفسهم هكذا، قدرهم هكذا.. فإذا خذلك العالم فاستمر؛ فالحياة مليئةٌ بالأحداث، ولديها سُنة تسمى النسيان، ستتخالط مع الأحداث، تنسى من خذلك، تنسى الأسباب، وتولد أسباب جديدة، وتولد أنت من جديد.

*****

الذكي يَستفيد من الجميع، والغبي يظن أنه الجميع.

الزيف بحاجة إلى تصفيق البعض ليُصبح حقيقة.

(٨)

ما تبدو عليه الآن، هو أنت لاحقًا

كان يبوح أحيانًا، فيرتجف جسده كطفل جُرّد من ملابسه في ليلةٍ من ليالي الشتاء الباردة

تنضُب في عينيه لمعة ولكنها لا تَذرف تلك الدمعة المُقيدة أبدًا

لا يود أن يبدو ضعيفًا أمام أحد

يتمالك بشدةٍ ويبوح ليهدأ، فينظر حوله فلا يرى أحدًا فيتذكر أنه كان يبوح لنفسه كما عاهدها من قبل بألا يشكو لأحدٍ حتى إذا هشم الضعف عِظام جسده..

يتذكر رجفة جسده وهو يتحدث، والدمعة التي جعل حدودها عيناه بكبرياء، فيتيقن بأن الضعف والقوة يسكنان البشر جميعًا، ولكن ما تبدو عليه أمام الآخرين الآن هو أنت لاحقًا.

*****

كُنت أحسَبُ أن الموت هو أسوأ ما يُمكن أن يحدث للإنسان، لكنني اكتشفت أنه أبسط ما يُمكن أن يحدث.

أنا لستُ هنا لأعطيك أملًا في الحياة، ولكن لا أحد يَترك جواده في الحُروب إلا إذا فُصل رأسه عن جَسدِه، والحياة حرب كبيرةً وأنت مَن اختار أن يخوض هذه الحرب.

(٩)

رفقًا بمَن يُرهقهم كل شيء، حتى أنفسهم

"إنني في أعماقه أو هو في أعماقي، لا أدري أيًّا مِنا يَسكن الآخر، لا أستطيع إيقافه أو إيقافي"

قالها، هز رأسه، أغمض عينيه، سقطت دمعة على وجهِه، أخرج منديلًا من سترته الجلدية، مسح دمعته، ظل يمسح.. يمسح وجهه.. يمسح تحت عينيه.. ماذا يمسح؟! احمرَّ المكان الذي نزلت فيه دمعته، دقيقتان يمسح مكان دمعته.. دقيقتان وأنا جالسٌ أمامه يتوغل الاندهاش عقلي ويخترق السكون ملامحي حتى أصبَحتُ كحجرٍ أصم أُلقي في وادٍ مهجور، نظر إليَّ، وضع يده على كتفي ونادى:

- أحمد!

قُلت بصوتٍ خافت:

- أنا بخير، هل هو هذا؟!

- نعم إنه هذا، إنه الوسواس القهري.

أثبتت الدراسات أن الأمراض النفسية تفوق آلامها، الأمراض الجسدية لا يُمكن لعقلك الصحيح تصور ما يحدث في عقل مريض نفسي مطلقًا، العبارات والجُمل لا يمكنها أن تُعطيك تخيلًا كاملًا لحياتِهم، ولكن لديك الجزء المسؤول عن هذا، إنه الشعور، الإحساس، فرفقًا بهؤلاء، رفقًا بكل الطرق الممكنة.

*****

الحقائق يلفظها الشجعان، أما الجُبناء فتبقى في صدورهم حتى تُميتهم ضعفًا.

ضوضاء المدينة ينشُب من الجانب المزدحم،

وضوضاء مدينتك ينشُب من الجانب الخامد.

(١٠)

انظروا للقلوب فقط.

كان يتجَافى العالم أو يتجافاه العالم.. شفرات النظرات الحادة، تلك الشفرات التي تجرح دون أن تسيل نقطة دم واحدة وإنما تَسيل الدموع على وجهه الشاحب كبحرٍ فاضَ في ليلٍ مُعتم، تتحطم مشاعره كسفينة أبحرت في تلك الليلة دون مقصِد، يتساءل في كل دقيقة نفس السؤال: هل ينقصني شيء عنهم؟!

يكاد العقل يمل من إجابته بنعم، تؤكد تلك النظرات إجابة عقله، حتى نظرات التعاطف كانت مؤذية، أود أن يُعاملني العالم كما كان من قبل، رفع رأسه للمرآة، نظر إلى وجهه ووضع يده في جيبِه، أخرج صورته قبل الحادث ونظر إلى نفسه ثم قال:

- لا يمتلكون تلك الميزة التي تجعلهم ينظرون إلى ما هو أثمن.

وضع يده على قلبه، نظر إلى السماء ثم ابتسم وسار.

*****

إذا أعطيت أحدهم مكانةً قبل أن يُثبت لك أنه جديرٌ بِها، فسيُثبت لك أنك أحمق.

حين تنضج تتغير نظرتك للأشياء، تنظر إلى دوافع الأفعال أكثر من الأفعال نفسها.

(١١)

يُهملها فقط

- هل ما زالت الموسيقى الحزينة تتوغل أعماق رأسك اللعين لتُخرج لك الذكريات التي ظننت أنها قد حُذفت؟!

قالها ثم أشعل لفافات السجائر.

نظرتُ إليه بتمعن فرفع حاجبيه وقال بصوتٍ خافتٍ وهو ينفث الدخان من فمه:

- كُن صادقًا مع ذاتك.

ووضع يده على صدري قبل أن يَضعها على رأسي ويُكمل حديثه:

- هذا لا يمحو الذكريات مطلقًا، إنه فقط يُهملها.

*****

ضِعاف النظر حدود رؤيتهم بضعة أمتار،

وضِعاف العقل حدود رؤيتهم أنفسهم.

هُناك أمور تتطلب الكذب، هذه طبيعة التعامل مع البشر، الجميع يكذب، أما من أخبرك بأنه لا يكذب فأنا أضمن لك أنه عكس ذلك فعلى الأقل قد كَذب في تلك الجملة.

(١٢)

تفاوت عظيم

أيقنت أن جميع الأمور تؤول للعقل في النهاية، وأن الحياة لم تكن مغمورةً بالسعادة التي أخبرونا بها، أنا هنا أروي لك الحقيقة لا أروي قصةً لتجميل المشاهد في عينك.. كُنا ثلاثمائة جندي لدينا الإصرار، العزيمة، والأسلحة ربما كانت متساوية مع جيشهم، أو كانت أسلحتنا تفوق أسلحتهم، دخلنا المعركة فقط بتلك العزيمة وذاك الإصرار، حين سُئِلنا ماذا لو كان عددهم أكثر؟!

رد جندي منا لا يتجاوز طوله مائة وستين سنتيمترًا:

- "سنقطعهم إربًا"

كان الحماس يملأ النفوس، لدينا الطاقة والجميع مُحفز بشدة، حتى التقينا بهم في "صحراء غورمان" لم نلتفت إلى أعدادِهم، فقط اهتزت الأرض تحت أقدامنا حين هَرعنا تجاههم، غطت الرمال الجو حولنا وكأن عاصفة ضربة أرض تلك الصحراء وتعالت أصوات الصيحات وكأن مذنّب قد انفجر في الفضاء..

كُنت أعتقد أن هذا الإصرار سيقتلهم رعبًا.. ألف جندي، مزقوا أشلاءنا، رؤوس تتطاير حولي وأشلاء تسقط بجانبي كل ثانية تقريبًا، من كثرتها تَحسَبُها أشلاءك فتنظر إلى جسدك فتجد أنك لم تُصب بعد، أبادونا بكافة الطرق في النهاية أُخذت أسيرًا أنا وثلاثة جنود، ما تبقى من ثلاثمائة جندي مُحارب ظنوا أنهم سينهشون رمال الصحراء.

في الحقيقة هناك تباين شاسع بين التحفز والتهور، ما كنا فيه هو تهور، سيتخالط عليك الأمر أحيانًا.. فالتحفز هو دخولك معارك تكون فائزًا بها على الورق أو تتساوى فيها مع الأطراف الأخرى أو تقل عنهم شيئًا ضئيلًا، أما دخولك معارك لا تعلم لها نهايات أو لا تعلم كيف ستسير أمورها فيسمى هذا تهورًا، والتهور لا يجلب لك الفوز إلا حظًّا.

*****

الشخصان المغموران بداخلك سيستمران في صراعهما حتى تموت، وعليك إرضاء أحد الطرفين في كل مرة، ثمة حقيقة عليك الاعتراف بها.

أنت تائه، تائهٌ مُنذ فترة.. مُقيد في علاقاتٍ وأحداثٍ ظننت أنها ستدوم إلى الأبد، فحين انتهت بقيَ هُناك جزءٌ من روحك، لم تسترده حتى الآن فنشب ذلك التيه، هذا الشرود المُستمر، كُنت أنت وأصبحت الآن آخرين لا تعرف لهم أسماء.. نحن نتشابه، نحن ما زلنا نُحاول أن نبدأ من جديد وتبوء مُحاولتنا دائمًا بالفشل، أتُريد أن تقتنع أننا متشابهون؟! نحن لا نريد أن نبدأ من جديدٍ حتى، نحن نُريد النسخة السابقة مِنا ولا نستطيع الحصول عليها.. لا بد أننا مررنا بنفس تجربة الخِذلان من قبل يا صديقي.

(١٣)

عملة الوقت

"لا شيء يتحسن هنا في تلك الحديقة التي أفنيت عمري في إصلاحها"

قالها، وترك فأسه، حمل حقيبته وأعطاني خمسمائة درهم ثم غادر..

كُنت طفلًا، لم يشغلني كلامه الذي لم أفهم معناه حينها، كل ما أثار اهتمامي هو ما كان سيُثير اهتمام أي طفل في نفس موقفي

ماذا سأفعل بكل تلك النقود؟!

ولكن سُرعان ما مرت الأيام وازداد تفكيري في هذه الموقف، لم أنسَه ولن يَحدث..

توالت الأعوام، تتابعت الأحداث وتلاحقت التعثرات، لمست منها أن هُناك أشخاصًا مهما حاولت إصلاحهم فلن تستطيع، فلا بد من الرحيل مبكرًا قبل أن تصل للمرحلة التي تُلقي فيها بكل شيء متعلقٍ به ومرتبطٍ باسمه حتى وإن كان ثمينًا.

تعثرات الحياة عَلمتني أن هُناك طرقًا مهما حاولت فيها فإنها ليست لك فمغادرتها مبكرًا خيرٌ من البقاء لجني القليل والذي سيُصبح لاحقًا عائقًا تُحاول إبعاده عنك بكل الطرق المُمكنة.

الحياة علمتني هذا وعلمته إياه ولكن ثمة اختلاف طفيف في العملة الأثمن على الكوكب (الوقت).

****

أعظم الخسائر التي يخسرها الشخص هي أن يذهب إلى فِراشه دون أن يفعل شيئًا يجعله يتقدم عَمَّا كان عليه بالأمس.

كثرة الأمل تُقابل بكثرة خذلان.

(١٤)

ابتسامة مكسورة

أخبرني حين كنت طفلًا بأن من يركلك مرة اركله عشر، فنشبتُ ونشبتِ الكبرياء معي، كنت أظنني لن أُهزم ولو لمرة، ولكن هُزمت كما هُزم هو أيضًا، كانت المرة الثانية التي تُصيبه تلك النوبات.. نوبات من التشنجات السريعة المُتتالية، رأيته ينتفض، يركل الأرض وكأنها هي من أصابته، كُنت أقف لا أستطيع فعل شيء وكأن يدي قُيدت..

ذهبنا في اليوم التالي إلى الطبيب، حسِبت أن ذهابنا للطبيب يُعني نهاية هذا وليس بدايته..

أخبرنا الطبيب بأنه مُصاب بورم خبيث في المخ، أنا لا أتذكر ما حدث بدقةٍ حينها، أخبروني أنني فقدت الوعي ولساني يقول:

"الحمد لله على كل شيء".

كان يبتسم لنا دومًا بعد مَرضه.

كانت ابتسامةً مكسورة، لم أعلم سببها حينها..

لم أعلم سببها إلا الآن وأنا ابتسمها لأولادي وأنتظر أن يُبيدني المرض كما أباده.

*****

الشيء الأكثر زيفًا هنا هو أنك ستصبح ملاكًا غدًا.

في الحقيقة من يُبحر دون واجهه، يخرج أنفاسه الأخيرة بقاع المحيط.

(١٥)

كان التشتت يُمزق أفكاري

كان الوقت متأخرًا لم أستَطع البقاء هناك فغادرت وغادر معي كل شيء، كنت شخصًا سيئًا، ربما.. لكن الحياة كانت أسوأ.. سنوات من الضياع أتقاضى بعضًا من ملذات الحياة، أتمالك بشدة ولا أستطيع أحيانًا، رأيت أحدهم وهو يختلس الأموال بسهولة والآخر وهو يُضاجع كل ليلة فتاة مُختلفة، رأيت الفساد بشتى أنواعه، كان الأمر سهلًا للغاية وكنت في مَطلع شبابي، أخبروني في الطفولة أن الخير ينتصر في النهاية، أن الصالحين فقط مَن يُمنحون المناصب العالية وأن المُخطئين يعيشون في الحياة هربًا، ولكن حين واجهت الحياة وجدت عكس هذا تمامًا، الشر هو القوى الغاشمة التي تجتاح كل شيء، الفاسدون يُمنحون كل شيء بفسادهم والمُخطئون يعتلون درب الحياة، قارنت هذا بذاك، تشتتت مبادئي أصبحتُ تائهًا كطفلٍ جَنح عن الطريق لمنزله فراح يجول بين الطُرقات الزلقة قال القاضي بصوتٍ غليظ:

- ولكن هذا لا يُبرر موقفك في القضية.

- أنا لا أريد أن أُبرر موقفي في القضية، ولكن أريد أن يعلم الجميع أن ما ارتكبته كان ناتجًا عن ذلك التيه وليس ناتجًا عن أنني شخصٌ سيئ.

الضياع الذي يُصيب الجميع في بدايات شبابهم، ربما مررت به يومًا، ربما تمُر به الآن، تشتُت أفكارك وتبدلها، مقارنة عالم الطفولة البريء بعالم الفساد ما هي إلا مقارنة عكسية تخرج منها تائهًا فيقودك ذلك التيه لمجاراة عالم الفساد أحيانًا، وأحيانًا يقودك للتمسك بالصواب، ذلك الصواب الذي كان منبعه عقلك ودينك.. خلق الله لنا عقولًا ودينًا لنستطيع بتلك المُعادلة التأقلم مع الحياة، هناك أمور قد تُحل بالعقل فقط وأمور قد تُحل بالدين فقط ولكن مُعظم الأمور التي يشتت فيها العقل لا بُد أن تكتمل أطراف المعادلة، إنها المعادلة الوحيدة القادرة على انتزاعك من هذا التيه.

ينتصر المرء فقط حين يُدرك إنه سيخسر في جميع الحالات.

الجميع يولد نقيًّا، ثم تعلمه الحياة كيف يصير مُتحجِّرًا بعد أن يسقط عدة مرات إثر طيبته.

(١٦)

ولكن من دونهم سأموت ببطء

لم أرَه منذ بداية الأسبوع، استقصاني الشك بأن تكون قد أصابته تلك الحالة التي أخبرني بها مرةً أخرى، اتصلت به فوجدت هاتفه مُغلقًا فقررت أن أذهب إليه، لم أكن أعرف عنوانه بشكلٍ دقيقٍ ولكني أعرف أنه من قريةٍ تابعةٍ لمحافظة الشرقية تسمى بالزنكلون فسافرت إلى الشرقية للتو ومن هناك ركبت سيارة أجرة أخرى توقفت على كوبري واسع، أسواره عالية تكاد تُحجب عنك رؤية ما خلفها، أخبرني السائق أن هذه هي القرية التي أقصِدها، فنزلت على ذلك الكوبرى، وجدت مجموعة من الشباب فسألتهم:

- كيف يمكنني أن أذهب إلى منزل جمال الهواري، يا شباب؟

نظر بعضهم إلى بعض وهز الجميع رأسه بأنه لا يعرفه فما كادت الحيرة تتوغل أفكاري حتى وجدت شخصًا يضع يده على كتفي من الخلف فالتفتّ إليه، كان شابًّا مَدِيد القامة، يبدو في أواخر العشرينيات وتنبلج من ملامحه الطيبة كانبلاج الفجر في ليلة قَاتِمة،

قال:

- أتود الذهاب إلى منزل جمال الهواري؟

قُلت في عجالة:

- نعم، هل تعرفه؟

- أعرفه جيدًا، هل أنت صديقه؟!

- نعم، أنا صديقه.

- غريب! ولكن على أي حال دعنا نذهب إلى هناك.

- ما الغريب في الأمر؟

- لا شيء، ولكن أعتقد أن "جمال" اعتزل عالم الصداقة منذ فترة، وربما يعتزل عالم البشر بعد فترة.

هنا أدركت أنه يعرف "جمال" جيدًا وأنه لديه كثير من المعلومات عنه، فقلت له:

- في الحقيقة أنا لست صديقه بالطريقة النمطية، يُمكنك القول إننا زملاء في الجامعة، جَلس معي مرة أو مرتين، كان شخصًا غامضًا بالنسبة لي، في إحدى المرات وهو جالسٌ معي كان يخرج هاتفه من جيبه فسقطت أمبولة الكيتامين منه، ظننته مدمنًا فأحب أن يبرر لي وجودها معه فأخبرني بأنه تصيبه كل فترة حالةٍ اكتئاب تجعله

يبعد عن البشر، يعشق العُزلة، ويحب أن يبقى وحيدًا، فحاولت بعدة طرق أن أقترب منه، فلم أجد منه استجابة، ولم أرَه مُنذ أسبوع فخِفت أن تكون قد أصابته حالة الاكتئاب هذه مجددًا، لذا جئت لأطمئن عليه.

رد بصوتٍ يشوبه الأسف:

- لم يكن هكذا، جمال صديقي.. كان صديقي ولكنه اختار الوحدة أو اختارته الوحدة.. لم يولد جمال في الزنكلون، كان من سوهاج وكما تعلم تدور الأمور بشكل تقليدي في الصعيد، حدث شجار بين أبيه وعمه، كان جمال حينها في الثالثة من عمره، فترك أبوه سوهاج بأكملها وجاء إلى هنا ومعه جمال ووالدته، ظل جمال يفتقد أن الجميع منا لديه عائلة كبيرة في تلك القرية إلا هو حتى فقد أباه وأمه في حادث سير منذ عام تقريبًا، فأصبح وحيدًا حقًا، حاولنا أن نحتويه بعد هذا الحادث لكن توارى الجميع تباعًا، كان يبقى في الليل وحيدًا لا أحد يعلم كيف يقضي ليله، كنت أذهب إليه في بعض الليالي، ولكن في النهاية أذهب عنه وأتركه يُكمل ليلته وحيدًا، حتى تنكب عن الجميع وتنكب عنه الجميع.

أحيانًا تُجبرنا الحياة على الوحدة، تبقى هي الخيار الوحيد أمامنا،

وأحيانًا نجبر أنفسنا على الوحدة رغم أن لدينا أهلًا وأصدقاء وأحبابًا لكن يُقيدنا الشعور بالغربة حتى ونحن معهم، البشر جزء من يومنا، لذا فالاستغناء عنهم يؤذينا نفسيًّا بدرجة أكبر من تلك التي نتأذى بها في التعامل معهم، فالبشر سيئون، ولكن لا يمكننا الاكتفاء بذاتنا في النهاية.

الشيء الأكثر ذعرًا في الحَياة، هو أنك لن تتلقى تنبيهًا قبل مُغادرتها.

أثمن ما يورثه المرء بعد موته، هو ذِكراه في عقول الآخرين.

(١٧)

معارك الحياة

كنت هنا منذ فترة، ارتديت نفس الدرع وحملتُ نفس السيف الذي تحمله أنت، خُضت معارك مميتة، هُزمت في بعضها وانتصرت في بعضها وأُسرت في البعض الآخر.

قال وهو يسن سيفه:

- لكني لم أرَ سيفك هذا، أين وضعته؟

- أهلكته المعارك حتى تفتت فصِرت أُحارب بمقبضه فترة حتى أصبح كحذاءٍ قديمٍ مزقته قدماك من كثرة ارتدائه فتركته.

- واعتزلت المعارك؟!

ابتسمت وقُلت بصوتٍ هادئ:

- لا أحد يعتزل المعارك حتى تتخَلى عنه الساحة، فطالما أنت هنا ستظل المعارك تراودك بين حينٍ والآخر، ولكني مُنحت سيفًا آخر مختلفًا تمامًا عن السيف الذي سبقه.

العمر ليس مجرد رقم وحسب، لا يعني عمر الإنسان فقط المدة التي قضاها منذ ولادته، ولكن إذا صنفنا عمر الإنسان بشكلٍ عام فإنه ينقسم إلى:

"عمر حقيقي" وهو تلك المدة التي قضاها الإنسان منذ أن ولد.

"عمر جسدى" وهو عمر جسد الإنسان الذي لا يتطابق بشكل دقيق أحيانًا مع عمر الإنسان الطبيعي فيمكن أن يسبقه أو يُلاحقه

و"عمر الإنسان النفسي والموضوعي" ويترتبان على عدة عوامل بالنسبة للإنسان الطبيعي من أهمها تلك العقبات التي سيواجهها في مسيرة حياته والتي تختلف من عمرٍ لآخر وتختلف طريقة مواجهته لها والسلاح الذي يستخدمه لمواجهتها تبعًا لعمره النفسي وليس عمره الطبيعي لذا فإن معارك الحياة ستصنع لك سيفًا ودرعًا، فاحملهما ولا تخشى الصراع، فخُض معارك الحياة، ستنتصر وستهزم وستبقى أسيرًا في بعضها..

سيمر العمر وتنتهك تلك المعارك هذا السيف الذي منحته إياك، تُذيبه كما تُذيب الشمس الجليد، وتعطيك طريقةً أخرى لمواجهة معاركك تلك الطريقة التي ستستمدها من هذه المعارك،

كالهدوء وحسن التصرف في وقت الأزمات الذي لن تراه إلا من شخصٍ قد خاض العديد من المعارك سابقًا فأصبح كهلًا.. كهلًا حَسب عمرِه النفسى.

****

ما أدركته حقًّا هو أن اللّه مُنصف وعادلٌ جدًّا، وإن كانت الحياة خذلتني فقد خذلت الجميع باختلاف الطرق.

المُبالغة في إثبات عكس الشيء، هو إثبات للشيء ذاتِه.

(١٨)

صراع لن ينتهي

كان الأمر مُباينًا للعادة، مُغايرًا للتوقعات..

كان الصراع دائمًا دون مواجهة الطرفين معًا،

كان أحدهما يُطارد الآخر دون التقاء كتتابُع الشمس والقمر، شيء ما يربطهما معًا رغم أنهما لم يجتمعا ولو لمرة،

كلّ منهما يُصبح أنت ولو للحظة ثم ينغمر في جزءٍ لا تراه لينجلي الآخر فيُمثلك، اجتماعهما معًا كان الصراع الحقيقي.. المواجهة التى جلستُ فيها أهددني وأكتشفني للمرة الأولى، أيفعل الإنسان شيئًا غير مُحبب له دون أن يكون مجبورًا عليه؟! وإذا كان هذا الأمر يُزعجه فلمَ يَفعله من البداية؟!

أجابني كلاهما بطريقةٍ مُقنعة وسردا لي جميع المبررات، فاقتنعت أن الصراع مُستمرٌ وأن المواجهة تُعني النقاء وإدراك الذات.

النفس البشرية والضمير، جزآن سيستمران في صراعهما حتى تموت، خُلق الإنسان ليخطئ ثم يتعلم من خطئه، وجودهما معًا يُعني اكتمال المُعادلة، وقوفك في مكانٍ محايد وتركهما يتواجهان معًا في موقف اشتركا فيه، يجعلك تتعرف جيدًا على نفسك.

حُطام السّفينة التي لا يُنذر أهلها بأنهم غارقون، يُنذرهم بأنهم رُعن.

الليل ليس حزينًا، بل هادئًا، وكل ما هو هادئ يُعطينا مساحةً كافية لنستمع إلى الصخب النابع من داخلنا.

(١٩)

سجن مظلم

كان لديه الشغف الذي يجعله يُسابق الوقت باستمرار ثم توارى كَنجمٍ في مطلع الفجر، نظر إلى هيئته في المرآة فوجد شعره أصبح كالسحب السمحاقية في عنان السماء وظهره أصبح كالعرجون القديم، فتذكر شغفه حين انتهى وسكن الندم حياته وساقه العمر.

يعيش البعض في سجن الندم المُظلم، يبقى طوال حياته نادمًا على الماضي فيقتص المستقبل ليزداد ماضيه ندمًا، تمر الأيام وتأتي لحظة يُدرك فيها أنه قد أضاع حياته في الندم وكأنه كان مقيدًا لا يستطيع أن يبدأ حياةً من جديد.

*****

الأشياء المعنوية لا تُقارن مُطلقًا بالأشياء المادية، فإذا تخلى أحدٌ عن شيءٍ معنوي مقابل شيءٍ مادي، أصبحَ بلا قيمة، كعاهرةٍ تتخلى عن شرفها مُقابل المال أو متسول يتخلى عن كرامته مقابل الشيء نفسه.. لا يمكن أيضًا شراء تلك الأشياء المعنوية بالأشياء المادية، فمَن أخبرك أن المال يشتري السعادة، كان شخصًا بلا قيمة، ولكن السعادة تجلب التفاني في العمل فتجلب المال.. فالأشياء المعنوية تفوق مكانتها الأشياء المادية، لذا حافظ عليها بشدة وأثبت لنفسك كلما أمكن أنك شخص تتحلى بالكرامة وعزة النفس.

لا شيء مُحفز أكثر من أنك لا زلت تتنفس.

(٢٠)

رعايتهم فرض

"بلا طعام، بلا مأوى، لا أدري لمَ أنا هنا؟! إلى أين يمكنني أن أذهب؟!"

سمِعته وهو يتفوه بتلك العبارات فظننته مُتسولًا أو فاقدًا للذاكرة، لفتت تلك الكلمات انتباهي، التفت إليه..

كان شابًّا وسيمًا، يرتدي قميصًا أسود أنيقًا، تندثر الدمعة في عينيه كما يندثر الحُزن في ملامحه، انتظرت حتى أنهى مكالمته، أدرت الكرسي الذي كنت قابعًا عليه، وجلست معه دون مقدمات مددتُ له يدي وقُلت:

- أستاذ محمود.

مد يده وهو ينظر إلى وجهي بتأملٍ شديدٍ وقال بصوت يتقفقف:

- أيمن، هل تعرفني؟!

- لا ولكنني سمعتك تتحدث ويبدو أن لديك مشكلة ما، فأخبرني إن أردت لعلنا نجد الحل معًا.

حسبته لن يتحدث، تلك النظرة التي نظرها إلي حين جلستُ معه توحي بأنه صنف ما فعلته، هذا كنوع من التطفل، ولكني تفاجأت حين رأيته انفجر في حديثه وكأنك ألقيت عود ثقاب مشتعلًا على محطة وقود.

قال بصوتٍ مُرتفعٍ بعض الشيء وكأنه يُصيح في وجه أحدهم:

- "المشاكل لا تفارقني، أنا لا أدري لمَ هذا؟!

شابٌ في العشرينيات لم يعد طفلًا، لديه مشاكله الخاصة، لديه مشاكله الدراسية، مشاكله الاجتماعية ومشاكله النفسية وغيرها، هل أنتَ كأبٍّ تظن أن ابنك لا يحتاج منك إلى رعاية؟".

هززت رأسي رفضًا حتى يُكمل حديثه، شعرت وكأن لديه طاقة يود أن يخرجها حتى لا ينفجر فأكمل:

- أعتقد أن أبي إن رآني في الشارع لن يعرفني، أبي وأمي منفصلان منذ أن كنت صغيرًا، لا أحد يهتم بي، كلاهما تزوج وعاش حياته كما يحب، تركاني عند جدي، قضيت معه طفولتي وشبابي، لم يكتفيا بهذا بل حطما ما تبقى مني حين توفي جدي أول أمس.. بقيت أمي

معي لليلة، شعرتُ فيها أنني إنسانٌ للمرة الأولى في حياتي، شعرتُ أن لدي عائلة، رغم أن أمي فقط من كانت معي، سمعتها اليوم تتحدث إلى أبي في الهاتف، تُخبره أنني لا يمكن أن أبقى وحدي، اهتز قلبي للمرة الأولى بهذا الشعور، شعور الاهتمام هذا لم أكن قد عِشته من قبل، رد أبي:

- أنا لدي رحلة لألمانيا غدًا في الصباح، تولي أمره حتى أعود.

ردت أمي بصوتٍ متسرعٍ وكأن أحدهم ألقى عليها بصندوق قمامة:

- زوجي لن يوافق أن يبقى أيمن معنا في البيت، لأن بناته هناك.

شعرت للمرة الأولى أن العالم يركلني في رأسي، تركت كل شيء ومشيت، ولن أعود، أنا محطم، أنا آسف لأنني تحدثت معك بهذه النبرة.

قام أيمن ومشى، حاولت أن أمسك به لكنني لم أستطِع، لا يمكنني النهوض؛ نظرت إلى قدمي المشلولة، تذكرت حين ركلتني الحياة في رأسي، حين طردني ابني من بيته، فبقيت بلا طعام، بلا مأوى، لا أدري لمَ أنا هنا؟! إلى أين يمكنني أن أذهب؟!

"العقوق"

العقوق لا يقتصر على الأبناء فقط، فكما يعق الولد يعق الأب، انظر لتعاملك جيدًا، اعتنِ بمن حولك، اعتنِ جيدًا بالأشخاص الذين يحتاجون منك إلى رعاية..

تُلهينا الحياة، فنظن أننا قد فهمناها جيدًا، نقسو في أقوالنا وأفعالنا، فتقسو قلوبنا، فلا يستطيع القلب أن يلين لمن يجب عليه أن يلين من أجله، فيعق.

*****

الأوجاع، التحطمات، الخذلان والمواقف السيئة

هذا ما يصنع الشخصيات وليس الأمل المُطلق.

الغبي فقط يظن أن الجميع حوله أقل ذكاءً منه.

(٢١)

المدينة ليست فاضلة

كانت الثانية ظهرًا، كنت نائمًا، انفصالك عن العالم في منتصف النهار يُعطيك الفرصة لاستكمال يوم لعين آخر على هذا الكوكب.

رن هاتفي فاستيقظت، حملته وأجبت على الاتصال:

- مرحبًا يا طارق.

- مرحبًا يا سيدي، لقد انتهينا من بناء المدينة اليوم.

هزقت في الضحك ثم قُلت له:

- عليكم أن تهدموها وتبنوا أنفسكم يا طارق.

ضحك طارق ولكنه لا يعي ما أقصِده جيدًا وقال:

- أمرك يا سيدي.

أنهيت حديثي معه واتصلت بالملك:

- مرحبا يا سيدي، لقد أتموا بناء المدينة.

- حسنًا يا حمزة، أقبل للقصر لنتخذ القوانين الجديدة بشأنها.

- حسنًا يا سيدى.

نهضت من السرير وأنا لا أرى ما أمامي، وجدت كؤوس نبيذ قد صُبت أمس ولم أشربها، فشربتها جميعًا ووقفت أحدث نفسي وأنا أنظر إلى هيئتي في زير النبيذ:

- ما الذي وقع بكِ حتى أصبحت أراكِ هنا؟! هل ستُصلحك تلك المدينة أم ستفسدينها؟

الملك الجديد شابٌّ تولى العهد منذ خَمسة أشهر فقط بعدما توفي والده بعد صراع طويل مع المرض، شابٌّ صغيرٌ مثقف كان مهوسًا بالقراءة، اكترث لروايات المُدن الفاضلة، فأحب أن يُنفذها على أرض الواقع، فأمر ببناء مدينةٍ جديدةٍ بأسرع وقتٍ ووضع قوانين تخصها وتخص سكانها ولكن هل الفساد في العالم كان بسبب فساد الجزء الكبير من العالم أم فساد ما هو أدق؟! وهل مدينة فاضلة يسكُنها البشر ستكون بلا أخطاء؟!

لا أستطيع أن أخبرك أن تتوقف عن الفساد بداخلك من أجل العالم، لتبدأ بنفسك والعالم من حولك فاسدٌ، ولا أستطيع أن أغير

العالم من حولك وأنا أعي جيدًا أن الفساد وليد النفس البشرية، ولكن ما أستطيع أن أخبرك به أنك إذا أردت أن تعالج فساد ذاتك فعالجه من أجل ذاتك لا من أجل العالم كما يخبرونك فالعالم مليء بالفساد الذي إذا تغيرت من أجله ستشعر أنك تتنافر معه.

****

أتعلم كيف يُمكنك قراءة البشر؟

من عيونهم، الشيء الوحيد الذي لا يُجيد الكذب.. انظروا إلى عيونهم تقرؤون تحطم قلوبهم، حُزنهم، ابتئاسهم، تيههم وضياعهم فالعيون تنضحُ بالمشاعر التي تُكتم في القلوب.

المكابرة ما هي إلا غِطاء للضعف، فالمكابرة في الاعتذار ضعف، المكابرة في الاعتراف بالخطأ ضعف والمُكابرة في التسامح ضعف، يفعلها هؤلاء الذين يقرؤون ضعفهم من أجل أن يشعروا أنهم أقوياء فقط.

(٢٢)

خُلقت الحياة لتُعاش لحظاتها

"رأيتهم وهم يحملونني على الأكتاف، رأيتهم وهم يحفرون قبري، حتى ذلك المرض اللعين قد رأيتُه قبل أن أصاب به"

قالتها ثم انهالت بالبكاء، قُلت بصوتٍ ساكن:

- تمالكِ فقط واحكِي لي ما حدث، لم أعد أفهم شيئًا.

قالت وهي تبكي بشدةٍ:

- إنه الفضول الذي يؤدي إلى التَّهلُكة، كُنت صغيرةً أبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، قادني فضولي إلى أن أُجرب كل ما أراه، رأيت في يومٍ ما على الإنترنت موضوعًا يتحدث عن "الإسقاط النجمي" لفت الموضوع انتباهي، جَمعت معلومات كافية عنه، إنه خروج الروح من الجسد ثم العودة إليها مجددًا، كُنت في ذلك الوقت يائسةً لم يُهمني الموت من الحياة، لم أكن أعلم أنها اللعنة التي ستجعلني أموت في كل لحظة أعيشها، كان الخامس والعشرون من شهر أبريل ما زلت أتذكر التاريخ جيدًا، قررتُ في ذلك اليوم أن أُجربه، التزمت

فراشي، أغلقت الأنوار ثم فعلت ما قرأتهُ، شعرت بروحي وهي تخرج من جسدي، كان شعورًا مُميتًا وددت أن أعود فلم أستطِع وفجأة وجدتُ نفسي في حلم، كان يشبه الحقيقة بشدة، وجدتني في ساحة فارغة وهناك بيت بعيد على مرمى بصري أكاد أراه، أصوات متداخلة، وسمعت صوتك من بينهم تُناديني "أحضري لي الغذاء يا أمي" لم أكن أعلم أن هذا النداء موجه لي.

"لمَ تتركين أولادك على الأرض هكذا؟!"

قالتها من خلفي فالتفتّ بسرعة، وجدتُها امرأة سمراء البشرة ترتدي ثوبًا قصيرًا وشعرها الطويل يُغطي نصف وجهها الأيمن، تبتسم ويبدو أن أسنانها قد سقطت جميعًا، أشارت برأسها إلى مكان ما، نظرت إليه فوجدتك أنت وأختك تبكون وملقين على الأرض، هرولت إليكم بسرعة.. انتشلتكم من الأرض وما زلت أجري بسرعة وأنظر خلفي، يدق الخوف قلبي وكأن ذئبًا يُطاردني، وصلتُ إلى ذلك البيت، وجدت أباكم هناك، جالسًا على أريكةٍ طويلةٍ سوداء، تُغطيها الأتربة فتبدو وكأنها مهجورة منذ آلاف السنوات، نظر إلي وقال:

- تُهرولين دائما مني إليَّ، أعطني الأولاد، ما زالوا صغارًا سيخشون النظر إليكِ فقد سقط شعر رأسك ووجهك بأكمله، تمكن المرض منك ولا أودهم أن يتعلقوا بكِ أكثر مني، ويجب عليكِ أن تتفهمي هذا أيضًا.

سمعت صوتكم قبل أن أراكم، رأيت زوجي وعرفت أننا سننفصل وأنني سأُصاب بالسرطان، رأيتهم وهم يحملونني على الأكتاف، رأيتهم وهم يحفرون قبري، انتظرت.. انتظرت كل شيء، الانتظار كان مُميتًا، حين تنتظر القطار لخمس دقائق فقط ستُصاب بالملل، لأنك تعلم ما الفعل الذي سيحدث، ولكن حين تنتظر حياتك بأكملها!!

الحياة خلقت لتُعاش، الشغف هنا في تلك الأحداث، في تلك اللحظات، سواء كانت تعيسة أو سعيدة.

*****

تُرهقك المُحاولات، تبوء معظمها بالفشل ويُكلل بَعضُها بالنجاح، تتوقف عن الخطأ فترة فتظن أنك لن تعود إليه مجددًا، تمر الأيام وتُخطئ من جديد، وتتجدد محاولاتك في كل مرة تسقط فيها وكأنك تمتلك ما لا نهاية من المحاولات الفاشلة.

إذا أصابك انعدام الرغبة في كل شيء، فاترك العالم وأطفئ أنوار حجرتك فقد حان ميعاد نومك.

(٢٣)

حتى لا تنسى

"كانت أصوات القصف تُلازمنا طوال الوقت، نستيقظ عليها وكأنها صَرير العصافير، أعذب صوت يُمكنك سماعه هناك هو صوت صُراخ الأطفال"

قالتها ثم نظرت إلى الأرض وتابعت:

- هذا باختصار شديد ما كانت عليه رحلتنا في سوريا.

*****

نحن مدينون لأنفسنا في النهاية.. مدينون لها بكل طاقة فقدتها في صراعاتٍ جازفنا بخوضها رغم معرفة العواقب ورغم أن البدايات كانت واضحةً جلية.

أنت بحاجةٍ لأشخاصٍ مريحة وما بخلاف ذلك يُمكنك تعديله.

(٢٤)

لم يرحلوا بل قُتلوا!

- أُدعى السيد رؤوف، أعمل هنا كراعي أغنام، ما الذي أتى بكم إلى مدينتنا؟! اللعنات هنا تُسيطر على كل شيء، البَشر، الأرض التي تقفون عليها وحتى تلك الأغنام.

وأشار بإصبعه إليهم.

نظرنا إلى الأغنام فوجدناها جميعًا يجتمعون حول عِنزة صغيرة ينضحونها حتى أوقعوها أرضًا، ومزقوها إربًا وكأنهم ذئاب يلتهمون فريستهم.

نظرنا إلى السيد رؤوف فوجدناه أخرج سكينًا من جَيبِهِ ويُقدم على قتلنا، كاد أن يرشق هذا السِّكين في عُنقي قبل أن يضربه أحدهم من الخلف بحجرٍ ويوقعه أرضًا.. وضع يده على عُنقه فاطمأن أنه مات، تراجعنا للخلف.. أقدامنا ترتجف.. قلوبنا تنتفض.. نشعر بتدفق الدماء في أجسادنا وكأنها شلالات تَصُب في مَجرى أقدامنا، ألسنتنا ساكنة.. ساكنة جدًّا.. لا تزدرد الريق حتى..

ريق؟! أي ريق!!

أصاب الجفاف فمنا..

أصاب الذهول عقولنا..

أصاب الانمحاص أعيُننا

قال بصوتٍ غليظ:

- ما الذي أتي بكم إلى مدينتنا؟!

لم يرُد أحد، لا يستطيع أحد أن يحرك لسانه من الرعب.. هل كان جفافًا في الفم؟! أم تجمدت ألسنتنا؟!

ابتسم وهو يتنهد قائلًا:

- لن أقتُلكم اليوم لا تقلقوا، ربما غدًا.

وضع السكين في جيبه وهو يُشير بيده على الأرض:

- اجلسوا.

جلس أولًا ثم جلسنا بهدوء.. قال:

- إنها القواعد هنا، أقصد اللعنات هنا.

قلت له:

- أي لعنات؟!

رد:

- غريزة البقاء

- غريزة البقاء!

- أهل تلك الأرض لا يستطيعون الخروج مِنها، إن غادروها تغادرهم أرواحهم، لعنة البقاء هنا تحتم عليك أن تقتل أو تشترك في قتل شيءٍ من جنسك لتحيا يومًا آخر، مَن يبقى على تلك الأرض لمدة أربع وعشرين ساعة يُصبح من أهلها، تسري عليه لعناتها ولا يستطيع الخروج منها، إنها أرض اللعنات، ولكن اللعنة الحقيقة تكمن في الأنفس، الجميع هنا جاء من أماكن عدة ولا يدري شيئًا عن تلك اللعنات، فيجد نفسه أمام خيار القتل أو الموت فيقتل كل يوم ليبقي ليومٍ إضافي هنا، لعنة البقاء تجتاح كل شيء.

انتفض إبراهيم صديقي وقال بصوتٍ يرتجف هيا لنغادر الآن من حيث أتينا.

رد قاتل السيد رؤوف بصوتٍ خامد:

- لا يُمكنك المغادرة من حيث أتيت، دخولك تلك الأرض عبر حدود ما يمنعك الخروج من نفس الحدود، لديك ثلاثة حدود أخرى يمكنك مغادرة الأرض منها.

قُلت:

- وأي الحدود أقرب إذًا للخروج؟

- من أي حدود دخلتم؟

أشرت بإصبعي خلف ظهري:

- تلك الحدود.

- إذًا فالحدود الغربية هُناك -وهز رأسه تجاهُها- هي الأقرب لكم، أعتقد من هنا تستغرق سبع ساعات سيرًا على الأقدام.

نهضنا جميعًا، وصافحناه ثم سرنا وسار القلق معنا، يرافقنا، يداهم أجسادنا، يحتل أفكارنا ويذيب قلوبنا تَوَجُّسًا..

ساعتان من السير..

ساعتان من الصمت..

ساعتان تطرق الأسئلة عقولنا دون أن تهتز ألسنتنا، وفجأة قاطع طارق هذا الصمت قائلًا:

- لقد تعبتُ، لنسترح نصف ساعة ونكُمل بعدها السير.

نظرتُ إلى إبراهيم، فقال:

- أعتقد أنه ما زال مُتاح لنا قُرابة عِشرين ساعة أو يزيد للخروج من هنا، ويتبقى فقط خمس ساعات لنصل للحدود الغربية، لقد

أنهكني السير أيضًا.

فأثنيت على كلامهما وقُلت:

- هناك صخرة.. صخرة كبيرة، لنرخِ ظهورنا عليها.

ذهبنا إليها، جلسنا، نظرتُ في ساعتي، إنها السابعة مساءً، قُلت لهم:

- في السابعة ونصف سنُكمل السير.

هز كلاهما رأسه بالثناء، صوت نباح كلبٍ ما أيقظني.. أيقظني!.. هل كُنت نائمًا؟!..

انتفضت وكأن أحدهم سَكب قِدرة مملوؤة بالماء الساخن فوق رأسي.. هل كان مشهد قَتل السيد رؤوف حقيقيًا أم كان حلمًا؟! وجدتني عند نفس الصخرة وجدت طارق وإبراهيم نائمئن أيضًا.. نظرت إلى ساعتي وجدتُها الرابعة!.. الشمس ساطعة!!.. هل نِمنا ليومٍ كامل هنا؟!

استيقظ طارق وإبراهيم على صوت صُراخي.. انتفضا كما انتفضت.. صَرخ طارق في إبراهيم:

- أنت السبب.

كلاهما وجة الاتهام للآخر، نشبت مشاجرة.. خِفت أن تكون اللعنة قد أصابتنا، حاولت أن أتلاشى أن يحدث هذا..

الفوضى تُسيطر علينا، قاطع تلك الفوضى صوت من خلفنا:

- أعتقد أن القتال بعد ساعة، ماذا تفعلون أيها الحمقى؟!

التفتنا إليه، كان عجوزًا، يتدلى شعر حاجبيه على عينيه، يرتدي ثوبًا بنيًّا يُظهر بياض وجهه وشعره..

ساد الصمت في المكان، فقال العجوز بصوتٍ هادئ:

- لمَ تتشاجرون؟

رد إبراهيم وهو يُشير إلى طارق:

- جعلنا ننام يومًا كاملًا، مر على دخولنا المدينة أربع وعشرون ساعة، صِرنا من أهلها.

تنهد العجوز وهو يقول:

- يبدو أن أحدهم أخبركم بلعنات المدينة، لا أحد سيجعلك تنام هنا ليومٍ كامل، فقط لعنة السر.. هل تعتقد أن تلك المدينة ستسمح لأحدٍ يعلم سِرها بالهروب منها ليخبر العالم بلعنتها؟!

مدينة جميلة من الخارج، ملعونةٌ من الداخل كبعض البشر كيف ستجذب سكانًا جُددًا بدلًا من هؤلاء الذين يموتون كل يوم على أرضها إن علم الجميع سرها؟! يُمكنك المُغادرة فقط إن لم تعرف شيئًا عن تلك اللعنات.. مَن يضُم شخصًا واحدًا للمدينة بأي طريقة، يحيا مُقابله يومًا آخر دون قِتال.. وأنتم ثلاثة، صفقة مُربحة

جدًّا بالنسبة له".

رحل العجوز، رحل طارق، رحل إبراهيم وبقيت أنا هنا في النهاية، الأرض الملعونة لا تحمل إلا ذوي النفوس الملعونة.. اللعنة ليست في الأرض، اللعنة في الأنفس، الأرض فقط تساعدك على اكتشاف لعناتك وللحديث تَكمله...

*****

فهرس